مَـقاصِدُ البَـحْـثِ العِـلْمِيّ

بقلم

مَحْمُود تَوْفِيق مُحَمّد سَعْد

أعوذ بالله من الشيطان الرّجيـم

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (النّسَاء:١٢٥)

﴿ وَمَـنْ أَحْسَـنُ قَـوْلًا مِمَّـنْ دَعَـا إِلَـى اللَّهِ وَعَمِـلَ صَـالِحًا وَقَـالَ إِنَّنِـي مِـنَ الْمُسْـلِمِينَ • وَلَا تَسْـتَوِي الْحَسَـنَةُ وَلَا السَّـيِّئَةُ ادْفَـعْ بِـالَّتِي هِـيَ أَحْسَـنُ فَـإِذَا الَّـذِي بَيْنَـكَ وَبَيْنَـهُ عَـدَاوَةٌ كَأَنَّـهُ وَلِـيٌّ حَمِـيمٌ • وَمَـا يُلَقَّاهَـا إِلَّا الَّـذِينَ صَـبَرُوا وَمَـا يُلَقَّاهَـا إِلَّا ذُو حَـظٍّ عَظِـيمٍ • وَإِمَّـا يَنْزَغَنَّـكَ مِـنَ الشَّـيْطَانِ نَـزْغٌ فَاسْـتَعِذْ بِـاللَّهِ إِنَّـهُ هُـوَ السَّـمِيعُ الْعَلِـيمُ ﴾ (فصلت : ٣٣ ـ ٣٦)

عـن سَـهْلُ بـن سـعد - رضـى الله عنـه قَـالَ قَـالَ النَّبِـىُّ - صـلى الله عليـه وسـلم - « فَـوَاللَّهِ لأَنْ يَهْـدِىَ اللَّهُ بِـكَ رَجُـلاً خَيْـرٌ لَـكَ مِـنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ » . (متفق عليه)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٠ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٠ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (أمُّ الكتاب)

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ♦ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ♦ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ (الانفطار)

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الحَديد)

﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم)

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا﴾

اللهمّ صلّ وسَلّمْ وباركْ علَى عبْدِك ونبيّك ورسُولِك سيّدنا محمّدٍ وعلَى آلِه وصَحبِه وورثتِه مِن أهلِ العلم وأمّته عددَ خلقِك وَرِضاءَ نفسِك وزنَةَ عرشِك وَمدادَ كلماتِك، ملْءِ السَّماواتِ والأرضِ ، وَملْءَ ما بيْنهما، ومِلْءَ مَا شِئتَ مِنْ شَيْءٍ بعدُ ، أنتَ أهلُ الثّناءِ والمَجدِ . أحقُّ ما قَالَ العبدُ ، وكلّنا لَك عَبدٌ : لا مانِعَ لِمَا أعطيتَ ، ولا مُعْطِي لِمَا مَنعْتَ ، ولا يَنفعُ ذا الجَدّ مِنك الجَدُّ ، ولَا حَولَ ولا قُوّةَ إلّا بالله العلي العظيم ."

أمّا بعدُ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ♦ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ (الطلاق)

جليٌّ لا يَخفَى أنّ طلبَ العلم عامةً ، والعلم ببيان الوحي قُرآنا وسنّة ذا منزلةٍ عليّة لا تخفَى على ذي عقلٍ، ولا يرغبُ عنها إلّا مغبونٌ ظلومٍ لنفسِه وأمّتِه ، وجليٌّ أيضًا لأولي الألْباب أنَّ مِن فوقِ طلبِه منزلةٌ أعلَى : منزلة **خدمة العلم وصناعته**. وتلك طَلَبَة النبلاءِ ، ولا يقُومُ لها فضلًا عَن يَقومَ بها إلّا صَفِيّ

القصدِ فتيّ العزمِ مستمسكٌ بكتابِ الله - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ – وبسنة رسولِه سيّدنا مُحمّدٍ صلّى اللهُ عَليْهِ وعَلَى آلِه وصَحبِه وسلّم في جميع أمرِه ظاهرِه وباطِنِه.

وخدمةُ العلمِ وصناعَتِه لا تتحقّقُ إلّا بما يُعرفُ اليومَ بـ" **البحثِ العِلميّ**" وهو يمثّلُ صُورة منْ صور الجهاد في سبيل الله تعالى، والدَّعوة إليه ، فهو جهادُ العلماء .

رَوَى أبو داود في كتاب" الجهاد" من سُننه بسنده عَنْ أَنَسٍ رضِي اللهُ عنه أَنَّ النَّبِىَّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ : « **جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ** ».

والجِهادُ فريضةٌ مُحكَمةٌ على كلّ مُسلمٍ مسلمَةٍ ، أيًّا كان قدرُهُ فِي النَّاسِ . هُوَ كالصَّلاةِ الفَريضَةِ ، لا تَسقُطُ أبدًا ولكلٍّ مجالُه وأدواتُه .

والجهادُ باللّسانِ :" الكلمة" الأوْلَى بِه أهلُ العِلمِ ، ومِن ذلِك إتقانُ "**البحثِ العلمِي**" عَن الحقائقِ وتحريرِها، وتوثيقِها ، والبَرهنةِ عليها ببرهانٍ قويمٍ ، وتقريبِها ، والدّعوةِ إليْها ، وتفعيلِها في الحياة ، ودفْعِ الشُّبُهاتِ ودَحضِها بالحَقّ المُبِينِ .

وَكلُّ عَملٍ يمارسُهُ الإنسانُ إنَّما يُؤسّسُ علَى حُسنِ الجوابِ عَن ثَلاثةِ أسئلَةٍ كُليّةٍ ، لا يُمكِن أن يُمارسَ عاقلٌ عملَهُ مِنْ قَبْلَ أن يُسائِلَ نفسَه هذه الثّلاثةَ الأسئلة ، وأن يَتبيَّن الجوابَ الصَّحيحَ الصّريح عنها :

إنّها: **لـِمَ ؟ وكيفَ ؟ وبِمَ ؟**

أسئلةٌ إذا علمَ المرءُ الجوابَ الصّحيح الصّريح عَنها، واستحضر ذلك قبلَ أن يمارسَ عَملَه ، وفي أثنائِه فإنّه - لا محالةَ – مقدمٌ علَى ما يَنفعُه .

أسئلةٌ لازمةٌ قبلَ كلّ عملٍ مَهما كانَ نوعُه وقدره وقيمته ، ومِنْ أكثرِ الأعمالِ افتقارًا إلى حُسنِ الجوابِ عن هذه الأسئلةِ " **البحثُ العلميّ**" مِن أنّه عملٌ شاقٌّ من جهةٍ ، ومنْ أنّه صَنعةُ النّبلاء مِن ثانيةٍ ومنْ أنَّ آثارَه بالغةٌ علُوَ القدرِ من تَاليةٍ ، فإذا ما أقدم المَرءِ عليْه ، وهُو لا يَتبيّن فِي فؤادِه الجوابُ الصّحيح عَنها ، فإنّه لا يصِلُ إلى ما هُو إليْه قائمٌ .

وهذِه الثّلاثةُ الأسئلة نسقتُها نسقًا تصاعدِيًّا على وفقِ مَوقع بعضِها من بعضٍ

جوابُ (لِمَ؟) يترتَّبُ عليْه جَوابُ (كيف؟) ويترتبُ على جواب (كيف) جوابُ (بِمَ؟) .

ولَمَّا كان المقامُ والجُهدُ الآن لا يُطيقُ السَّعي إلى الجَوابِ عَن هذِه الثّلاثةِ ، كان منطقُ العَدل والإنصَافِ أن استفتحَ بالقَولِ فِي جواب (لم؟) وهو جوابٌ يُبينُ عن مقاصِدِ العملِ ، وليس من شِرعة أولى الألبابِ أن يَسعَى المَرءُ إلى ما لا يُحسنُ العِرفان بحقيقة ما يسعَى إليْه .

مِنْ ثَمَّ كانَتْ الإشارةُ العَجلَى إلَى مَقاصِدِ البَحْثِ العِلْمِ أمرًا نافِعًا - إنْ شَاء الله تعالَى - وَذَلِكَ ما أرْجُو الله - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ – أن يُعينَ عَلَى القيامِ لَهُ وَبِهِ عَلَى النّحْوِ الّذِي يَرضاهُ ، فَيرْضَى عنّا . إنّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالقَادرُ عليْه والمُستجدَى التَّفَضّلُ بِه عَليْنا.

وصلّى اللهُ عَلَى سيّدنا محمدٍ عَبْدِهِ ونَبيّهِ وَرسُولِه وعَلَى آلِه وصَحبِه وورثته من اهل العلم وسلّم تسْليمًا كثيرًا والحمدُ لله ربّ العالمين .

قَوْلٌ فِي العُنوان ([1])

جَعلتُ عُنوانَ هذه الوُريقاتِ الْعجلَى : " مَقَاصِدُ البَحثِ العلمي" عِبارةٌ ذات كلماتٍ ثلاثٍ ، كلُّ كلمةٍ ذاتُ دلالة مُحكمةٍ يُقيّد بعضُها بعضًا :

قولُنا: "مقاصِد" يُقيّدُه قولُنا:" البَحثُ"، وقولنا :"البحثُ" يقيّدها قولنا: "الْعِلميّ" فحسنٌ أن تُبصرَ علاقاتِ معاني الكَلِمِ ببعضِها ، ذلك أنّ الحُسنَ والقُبحَ مردُّه إلى نوع العلاقاتِ بيْن الأشياء ، وما الحياةُ إلّا مَجموعُ علاقاتٍ بيْن الأشياءِ، فليس ثَمّ في الحياةِ ما هو حسنٌ لذاتِه أوْ قبيحٌ لذاتِه، فمَا يكونُ حسنًا في مساقٍ يكونُ هُوَ هُوَ قبيحًا في مسَاقٍ آخر، ففي تلك العلاقات حُسنًا وغيرَه تكمن قِيم الأشياءِ . وهذا مهمٌ جدًا في ممارسة" **البحثِ العلمي**"

قولِي: " مقاصد" جمع " مَقصِد" وهو مشتقٌ مِن " القَصد" . وأهلُ العلم باللّسانِ العربيّ على أنَّ الكلماتِ الّتِي أصولها "القاف "و"الصَّاد" و"الدَّال " على هذا النَّسق ذات جذرٍ واحدٍ هو "الباعثُ علَى النُّهوضُ إِلى الشَّيْءِ "

ويتولَّد من هذا الجذر معانٍ متآخذةٌ متناسِلةٌ، مترابِحةٌ ، متراحبة ، وبكلٍّ جاء استعمالُ العَرب لمادة " قصد " فيها ،ولا سيّما في " الشّعر الجاهِلِيّ " ممّا يهديك إلى اتساع "المعنى" وتوالد المَعانِي في المادّة اللّغوية الواحدة ، وهذا مِن خَواصّ اللّسان العربيّ ، لا تكادُ تجدُ مثيلَه على النَّحو في لسانٍ آخر.

مِن المعانِي المتوالِدةِ معنى الباعِثِ، والوفرة ، والاكتناز ، والاستواء ، والتَّوسّط ، والسّهولةٌ ، والاعتدال ...

ذلك ما يُتيسر لَك أن تَجتنيه من هذه المادةِ ، في مواقعِها من البيانِ العربي الأصيلِ ، ولا سيّما ما كان قبل الوحيّ ، ولذا كنتُ لها مصطفيًا لتكاثرِ ما يتولّدُ منها .

ومرادي هنا بـ"المقاصد" **البواعثُ النفسيّة إلى القيامِ بالفعل.**

---

[1]) كلمة عنوان مشتقة من مادة" ع ن ن " وهي مادة عمود معناها "الظهور" وهي قريبة من مادة" ع ل ن" صوتًا ومعنَى، والعربُ تقول " عنوان"و" علوان"

وعنوان كل شيءٍ مفتاح الدخول فيه، ومن ثم تأتي أهمية العناية البالغة بتحقيق عنوان موضوع البحث العلمي" وتحريره بحيث يكونُ جامعا كلّ ما يُمكنُ أن ينتمِي إليه ولو بسببٍ بعيد أو خفيّ وبحيثُ يكونُ العنوان مانِعا كلّ ما لا يُمكنُ أن ينتمِي إليه بسببٍ بعيد أو خفيّ .

وهذه البواعثُ هِي مدارُ قبولِ العَملِ ونفعِه لصانعِه ، ولِمَن صُنِعَ رِعايةً لَه. ولذا كان مِن جليلِ فقهِ الإمامِ البُخاريّ أن جعل فاتحةَ كتابِه روايتَّه لحديثِ " **إنّما الأعمالُ بالنّياتِ**" وأوردَهُ فِي صَدرِ كتابِ "**بدء الوحي**" من صَحيحِهِ ، وأنت إذا نظرت لَمْ يظهَر لك وجه المناسبةِ بيْن "الحديث" ومساقِ إيرادِه ، ولكنّ التَّبَصُّرَ يهدِيك إلَى أنّهما يلتقيان في مآل المعنى.

مآل المعنى في الحديثِ أن يكونَ جميع أمرك لتحقيق مرضاةِ ربّك ، والوحيّ كلّه قرآنا وسنة إنما مآله ذلك ، ولذا كان المعنى الأم والمقصُود الأعظم للقرآنِ كلّه هو قولُه - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ (أم الكتاب:٥)

القصدُ الرَّئيسُ مِن الوحي من حيثُ ما تضمّنه ، ومن حيُث كيفيته، ومن امتداده ثلاثة وعشرين عاما ([1]) إنّما هو تحقيقُ صفاءِ القصدِ بالإعمالِ ، فلا يكون لغيرِ الله - سُبْحانَهُ وَتَعَالَى - فيها نصيبٌ .

وحديث"**الأعمال بالنّيات**" هو الّذي عليْه المدارُ في فريضة تحقيق المقصد من الفعلِ .

ليس المُقدَّم المُسْترضَى نوعَ الفعل ومقدارَه وكيفَه وأدواتِ صنعِه ، وزمانَه ومكانَه .

المقدّمُ الْمُسْتَرْضَى أوّلاً هو "المقصد"،فإن صحَّ مقصدُك وصَفا ، فقد صحَّ لك عمُودُه، وكلُّ نقص فِي ما عدَاه نَقصٌ لا يُبطلُه ، وإنْ كان له أثرٌ سلبيّ ما فِيه ، أمّا النَّقصُ في" المقصِد" وإن كان دقيقًا ونزيرًا، فإنّه المُبيرُ الماحِق وإنْ بُولِغَ فِي إتقانِ ما عداه . وتفصيل الحديث هادٍ إلى ذلك.

"المَقصِدُ" هُو باعِثُك علَى الفِعلِ ، وَقَدْ يكونُ لِلفِعْلِ مَقاصِدُ عِدَّةٌ ، وَلكِنْ لا بُدَّ أنْ يكُونَ مِنْها مَا هُو "أمّها" ، ومَا عَدَاهُ مُتولّدٍ مِنْهُ ، وَمُنْتسِبٌ إلَيْهِ .

[1]) ظهور إعجاز القرآن في تنزيله في ثلاثةٍ وعشرين عامًا أعظم من إنزاله جملة واحدة كما أراد المعاندون فقالوا(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) (الفرقان ٣٢)، فأبان الحق - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ – الحكمة بقوله تعالى (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) (الفرقان ٣٢) وهذا لا يدركه إلاّ أولو الألباب .

لذا اصطفيْتُ كلمة" مقصد" وجمعتُها ، ولم اصطف كلمة " غايات" لأنّ "الغاية" هي منتهى ما يصلُ المرءُ إليه ، وهي لا تستجمِعُ المعانِي الَّتي استجمعتها كلمة" المقاصد"

أمَّا كلمة" بحثٍ" فيُفاد منها أنّ ثَمَّ غائبًا يُراد استدراكُه والوصولُ إليْهِ ، فلا يبُحثُ عمَّا هو حاضرٌ وما هو ظاهرٌ ، وما سبقَ الوصول إليه. ([1])

وهذا يوجب أنك في" البحث" لا تذكر ما هو معلومٌ إلّا لِتَتَوصَّل بِه إلى ما هو ليس بمعلوم ، فإن أهلُ العلم على أنّه قد يذكرُ ما هو معلومٌ ؛ ليبنى عليه قولُ فيما ليسَ بمعلوم . ([2])

ونعت"البحث" بـ" العلمي" يهدَي إلى أنَّ لهذا البحثِ أصولًا وضوابط وأدوتٍ ، لابُدّ من امتلاكها ، وتحققها في منْ يقومُ لِذلِك العَمل .

وهُو لنْ يكونَ لِذلِك أهلًا إلَّا إذا ما تضلَّعَ بحقائقِ المنهجِ وأصولِه وضوابِطه، واكتملت فيه مهاراتُه وخبراتُه وأدواتُه.

وهذا يُبين لك الفرقَ الجوهريّ بيْن ما هُو بحثٌ علميٌّ ، وما هو كتاب في العلم. قد يكونُ الكتاب جُمعة معارف ومعلومات سبق العلمُ بها مِن الخاصَّة أو مَنْ دونهم ، ولا يلزم فيه أن يكونَ فيه كشفٌ عن خبيءٍ غير معلومٍ منْ قبلُ .

---

[1]) يقول ابن فارس: " الْبَاءُ وَالْحَاءُ وَالثَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى إِثَارَةِ الشَّيْءِ. قَالَ الْخَلِيلُ: الْبَحْثُ طَلَبُكَ شَيْئًا فِي التُّرَابِ. وَالْبَحْثُ أَنْ تَسْأَلَ عَنْ شَيْءٍ وَتَسْتَخْبِرَ. تَقُولُ اسْتَبْحِثْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَأَنَا أَسْتَبْحِثُ عَنْهُ... وَيُقَالُ: بَحَثَ عَنِ الْخَبَرِ، أَيْ: طَلَبَ عِلْمَهُ. (مقاييس اللغة . باب الباء فصل الحاء..) (بتصرف)

ويقول ابن جني في باب "أشباه المعاني" من كتابه "الخصَائص" مبينٌ عن التَّناسب بيْن أصواتِ حروف مباني الكلمة ترتيبها ما تدل عليه من أحداثٍ ومعان:

" قولهم : "بحث"."الباء" لغلظها تُشبه بصوتِها خَفقة الكفّ على الأرض ، و"الحاء" لَصَحَلِها تشبه مخالب الأسد وبراثِن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض ، و"الثَّاء" للنفثِ والبث للتراب . وهذا أمرٌ تراه محسوسًا محصَّلا ، فأيُّ شبهةٍ تبقى بعده أم أيّ شك يعرض على مثله . "

الخصائص. تأليف : أبي الفتح عثمان بن جني.(ت:٣٩٢هـ) تحقيق : محمد علي النجار (١٣٨٥هـ) الناشر : عالم الكتب - بيروت. ج: ٢ ص: ١٦٣ (بتصرف)

[2]) "قد" هنا ليس لتقليلِ ، بل للتحقيق، فهي كمثلها في قول الله - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ –

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (الأنعام: ٣٣)

المُهِمّ أن يكونَ جُمعةَ معلوماتٍ ومعارف صَحيحةٍ نافعة منسوقةٍ نسقًا يُعين على حسنِ الإفَادةِ منها والبَصَرِ بِما فيه ، فقد لا يكونُ لك شيْءٌ يُنسبُ إليْك في كنابِك ، إنْ أنتَ إلّاَ جامعُ علمٍ وناسقُه فلك فضيلةُ الجمعِ والتَّوثيق والتنسيق ، وهي فضيلة لا يرغَبُ عنْها. فأنت فيه حامل علم الآخرين، ولستَ بصَانع علمٍ

رَوَى "التّرمُذيّ" في كتاب" العِلم" مِن جامعه بسندِه عَن زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رضِي اللهُ عنه انّه سَمِعْ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ :

« نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ ». (صحَّحه الألبانيّ)

والباحثُ العلميّ ليست رسَالتُه أن يجمعَ ويحملِ علمًا صنعه الآخرون وكفَى وإن كان المجموع المحمول جد كثيرٍ وفضيلٍ .

ليست هذه جماع رسَالته .

إنّما هو يَجمعُ ويحملُ ؛ لِيستخرجَ ممّا هُو موجودٌ ما ليْسَ بموجودٍ . وهذا جوهرُ ما يُسمّى"إبداعًا" في الفعلِ البشريّ .

فمنْ **شروط صحة** " البحثُ العلميُّ" واستحقاقِه ذلك الاسم الاصطلاحيّ الجليل إلّا إذا تحقق فيه واحد من أربعةٍ على الأقلّ :

- **أن يكونَ عملًا كاشفًا عَن حقيقةٍ عِلميَّةٍ غائبةٍ مجهولةٍ، أو غائمةٍ أو مشتبهٍ بها أو مشكوكٍ فيها**
- **أو أنْ يكون كاشفًا عن حلِّ مشكلةٍ معضِلةٍ**
- **أوْ أن يكونَ مُجيبًا عَن سؤالٍ جوهريٍّ فِي القضيةِ أوْ المسألةِ العلمِيَّةِ الَّتي هِي محلّ البحثِ**
- **أو أن يكونَ مُقوّضا شبهاتٍ وأوهامًا تتلاعبُ بالعُقولِ .**

فمن شاءَ أن يعرف ما يُمارسُه من عملٍ أهو بحثٌ عِلميّ" أم هو "عملٌ علميٌّ "، فلينظر فيه مستبصرًا : أيحقق فيه واحدًا من هذه الأربعة أم هو

الخلاءُ منها جميعًا . إن كان خلاءً ، فهو "عملٌ علمي" وليس **بحثًا علميّا**، ويا فَرق ما بيْنهما .

كثيرٌ مَن يُطيقيون إنجازأعمالٍ علمية ، ولكن مَن يطيقُ **"البحث العلميّ"** قليلُ ؛ لأنّه صَنعة "النُّبلاء" ولذا جعلتْ هذه الفريضةُ مسؤولية "الجامعات" و"مراكز البحث العلمي" ، وهي أشرفُ بقاعِ الأرض من بعد "المساجد"، والمنتسبون إليها هم "المُصطفَوْن الأخيارُ" في قومهم ، أوْ ينبغِي أن يكونوا ، ولكنّ أكثرَ النّاس لا يفقهُون .

يُشترطُ فِي موضوعِ البحثِ أمران رئيسيان ، لا يجوز للقوّامين على تسجيله وإجازته من أهلِ العلم في الجامعاتِ أن يفعلوا إلّا إذا تحققا معًا :

- أن تكون لموضوعِ البحث قيمةٌ علميةٌ
- وأن تكون له قيمةٌ مجتمعية . (خدمـة المجتمع)

أمّا الأول : أن تكون له قيمة علميّة ، فهذا يتحققّ بتحقق واحد من الأربعة التي أشرتُ إليها قبلُ ، وأن يكون الموضُوع ذا قضايا ومسائل شائكة تستوجبُ مزيد اجتهاد ومجاهدة ، ليكونَ للباحث من الوفاء بحقّها ما يكون شخصيته العلمية ويشكلها ، وليكون يومًا خبيرًا مليكا لمهارات صناعة العقول العلمية ، فإن الجامعات ومراكز البحث العلمي مصانع عقولٍ علمية .

الباحثُ العلمي ، لا يبني أكوخًا من طين تتهاوى من أوهن ريح وأهونها .

الباحثُ العلميّ ينحتِ من الصخور قصورا تبقَى ما بقيت الحياةُ.

منْ هنا يَجبُ أن تكونَ في موضوع البحثِ مشكلات يُفتقرُ إلى حلِّها وتحقيقِها وتحريرِهِ وتَبْيينِهِ وتقريبِهِ . فإنْ لَم يكُن ذلِك فيه هُو العُمدةُ ، فلا يكون مِن البحثِ العلميّ فِي شَيْءٍ ، فإمَّا أنْ تسمّيه كِتابًا علميًا أوْ عَملًا عِلميًّا ، أَمَّا أَنْ تُسمّيه " بَحثًا عِلميًا " فلا سبيلَ إلَى ذلِك .

وأمّا الآخر: القيمةُ المجتمعية ، فقريضة أن يكونَ موضوع البحث ذا فائدة عظمَى للمجتمع الذي يصنع فيه البحثُ وللمجتمع البشري أجمعِه ، وليس بلازمَ أن تكون الفائدة متعلقة بحاضر المجتمع أو بأحواله الاقتصادية أو الاجتماعية ونحو ذلك ، بل قد تكون الفوائد العوائد متعلقة بوجوده **"الآدميّ"** الّذي كرّمه الله تعالى ، فجعلَه الخليفة ، متعلّقةً بعزّته في مسيره في هذا الحياةِ الدُّنيا ، أَوْ بمصيرِه في الحياةِ الأُخرَى.

•••••

تَخليص مَقاصِدُ البَحْثِ العِلْمِيّ

البَحثُ العِلْمِيُّ فِي مَا يَتعلَّقُ بِمَسيرِ العِبادِ إلَى رَبَهم - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ – وَمَصِيرِهِمْ وبرسالتِهم الاستخلافِيّة لإعمار الحياةِ كونًا وإنسانًا ، لَهُ مَقاصِدُ عَديدةٌ ، وبِرغْمِ مِنْ عدّتِها وتنوعِّها، فإنّ لها مقصِدًا كليًّا هو جُمْعتُها . وَبِملْكِهِ مستبصِرًا أن تْسْتولِدَ مِنْهُ مَقاصِدَ عِدّةٍ.

ومِن مهاراتِ التَّفكيرِ العِلميّ تَركيبُ الجُزئياتِ وإدراجُها فِي فساطِ أمرٍ كُليّ يكونُ بِمثابة "الأمّ" لها ، وهذا الأمرُ الكُلّيّ لا يكونُ هُو مجموعُ ما يُحيطُ بِه ، فحسبُ بلْ هُو ذلِك وما بيْن هذه المجموعاتِ فيه مِن علاقاتٍ ترافدُ وترابحُ ، ولولا ذلِك التَّرافُد لَما كان لَها أن تكونَ أهلًا لأن تُجمعَ تَحْتَ كُلّيّ .

لِذلِك آثرْتُ أنْ أُبِينَ عَن مَقصِدٍ كُلّيّ جامِع ، تتوالدُ مِنْه مقاصِدُ أُخر.

المَقصِدُ الجُمْعَــةُ   .

تَحقِيقُ ما بِهِ كَمالُ الوَفاءِ بِحَقّ رِسَالَةِ الاسْتِخْلافِ إعْمارًا لِلْحَياةِ وِفْقَ مُرَاد اللهِ - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ -الشَّرْعِيّ.

قد يتوهمُ أنّ هذَا قولُ خطابيّ وَعظيّ أقربُ مِنْهُ أنْ يكونَ قَوْلًا عِلمِيًّا .

الأمْرُ لَيْسَ كَذلِكَ . هُوَ مِنْ صَمِيمِ القَوْلِ العِلْمِيِّ النَّفِيعِ، فَمِن العِلْمِ المُحقّقِ أنَّ ما يَتوقّفُ عَلْيهِ الوَاجِبُ وَاجِبٌ ، والبَحْثُ العِلْمِيّ لَنْ يَكُونَ صَالِحًا مُصْلِحًا إلّا إذَا كان مُنْطَلَقُه الرَّئِيسُ وَباعِثُهُ الأمِيرُ تَحقِيقُ ما بِهِ كَمالُ الوَفاءِ بِحَقّ رِسَالَةِ الاسْتِخْلافِ إعْمارًا لِلْحَياةِ وِفْقَ مُرَادِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ – الشَّرْعِيّ .

الحَقُ أنّ هذا ليْس مَقصِدًا خاصًّا بالبَحث العلميّ عَلَى الرّغم منْ أنَّه مِنْ أَشَرفِ أَعمَالِ الصّفوةِ النُّبلاءِ .

هُوَ مَقصِدٌ عامٌ كُلَّ مَا يُمارِسُهُ العَبدُ مِنْ قوْلٍ أوْ فِعْلٍ أوْ يَكونُ فِيهِ مِن حالٍ إلّا أنَّ **"البَحثَ العِلْمِيّ"** مِن أخَصّ مَا يَجِبُ استحضارُ هذا المَقصِدِ عَلَى كَمالِهِ قَبْلَ المُمارَسةِ وفِي أثْنائِها.

ذلكَ أنّ فِي تَحقِيقِ اسْتِحْضارِهِ والتَّخلّقِ بهِ ما يَترّتَّبُ عَليْهِ إتقانُ الصَّنْعَةِ علَى نَحْوٍ لَا يَكُونُ إذا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ المَقصِدُ حاضِرًا مُتَخَلَّقًا بِهِ .

وَعَلَى الرَّغمِ مِنْ ذَلِكَ ، فإنّ البَحْثَ العِلْمِيَّ ، وَلاسِيّما عِنْدَ النَّاشِئةِ مِن طُلَّابِ "الدِّراساتِ العُليا" قلّما يُسْتَحْضِرُ ذلِك المَقصِد قبلَ الإقدام عليْهِ ، وفي أثناءِ المِمارَسَةِ ، بَلْ قَدْ تَجِدُ غيرَ قليلٍ مِنْ الناشئة مَن يَكُونُ باعِثُه ، وَمستفزّهُ إلَى أن يلقِي بنفسِهِ في معترك **"البَحثِ العِلمِي"** بعيدًا عَن ذلك المقصِد الكليّ .

ولو أنَّهُ أدْركَ ، وآمَنَ إيمانًا فتيًّا أنّ هَذَا المَقصِدَ هُوُ حَجرُ الأساسِ ، وأنّهُ للأعمالِ الصَالحةِ المُصْلِحة أشبَهَ بالشَّهادتيْن اعتقادًا وَنُطْقًا جَهيرًا لِلدّخُولِ فِي الإسْلام .....

إعمارُ الحياةِ كَوْنًا وإنسَانًا وفق مُرادِ اللهِ تعالى الشّرعيِّ هو عمودُ رسالة الإنسان . فهو المُستخلفُ لإعمارِها ، والله - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ - في أوّلِ مَوضِعٍ مِن القُرآنِ الكَريم ذَكرَ فيه قصَّةَ سيّدنا آدمَ عليه السلام : لَم يذكر مِمّ خلقه ، كما ذَكَرَ فِي سائِرِ مَواضِعِ ذكْرِها، بَلْ ذَكَرَ رِسالتَهُ فقالَ - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ - :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الْبقَرة :٣٠)

فهدَى إلى أنّه خُلق لِيُستخلفَ فِي الأرضِ لِيُصلِحها ، ويَعمُرَها، وَمِنْ ثَمَّ سمَّاهُ "آدم" لفتًا إِلَى رسالتِهِ وطريقه لعبادة خالقه تعالى : فـ"آدم" اسمُ تَفضيلٍ مِن"الأدْمِ" أي الإصْلاحِ ، فهُو كَمِثْلِ"أَحْمَد" **(اسْمُ تفضيل)** مِن الحَمْدِ ([1])فَمِقدارِ تَحَقيقك لصَلاحِك ، وإصلاحِك الحَياةَ وإعْمارِها يكونُ انْتسابُك إِلَى بَنِي آدم الَّذين قال اللهُ - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ – فِيهِم مُمتنًا :

[1]) ليس العَّليّ أنّه سماه " آدم" مِن أنّه خُلقَ من أنّه كان" آدم" : أيْ "أسمر" اللون ، أَيّ عبرةٍ في الإنباء بلونه ؟ اللهُ - جلّ وعلَا – لا ينظرُ إلى أجسادِنا وألوانِنا ، بلْ إلى أعمالِنا .
روَى مسلمٌ في كتابِ "البِرّ والصِّلة والأدب" من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضِي اللهُ عنه - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-:
« إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ ».
وليس العَليّ أيضًا أنّه سماه" آدم" مِن أنّه خُلق من أديم الأرضَ .
الأسماءُ الأصلُ فيها أن تكون سمةً وعلامة لحقيقة المسمى، ولذ كان سيدنا رسول الله صلّى اللهُ عَليْهِ وعَلَى آلِه وصَحبِه وسلّم يغيرُ بعض أسماء الصحابة حين لا يكونُ الاسم معربًا عما يحب صلّى اللهُ عَليْهِ وعَلَى آلِه وصَحبِه وسلّم أن يكون عليه الصّحابيّ ، وذلك غير خفيّ على مثلك في مقامِ طلب العلم
وقد جعل سيدنا الفاروق عمر بن الخطاب - رضِي اللهُ عنه - من حقوقِ الولد على أبيه أن يُحسن له اسمه ، مثلما أن يُحسن اختيار أمّه ، وأن يعلمه القرآن .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء : ٧٠) ([1])

وتحقيقُك هذا المقصِد الأعظم في ممارستك **"البحث العلميّ"** أيًّا كان مجالُ العلمِ الّذِي تَبحثُ فيه عَن الحقائقِ الغائِبةِ ، وتحلّ المُشكلات العويصَة ، وتدحضُ الشبهات ، وتئدُ الخرافاتِ ، فإنّما هُو مُحققٌ عَظيمَ انتسابك إلى أَبِينا وسيّدنا آدَم – علَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ -

وكلّ بحثٍ علميّ فِي أيّ مجالٍ منْ مجالات العلمِ لا يكونُ القصدُ بِه إلى صَلاح صانعه وإصلاحِ الحَياةِ كَونًا وإنسانًا وإعمارها ، هُو مِمّا يَجبُ علَى كُلّ عاقلٍ أن يَنفرَ عَنه مهمَا كانتْ دقتُه وأهميتّه.

قبل أن يشرعَ الباحثُ في أيّ بحثٍ وإنْ صَغُرَ حجمُه علَيْه أن يَسائلَ نفسَه هذا السّؤالَ : **لِمَ ؟**

إنّهُ سؤالٌ جَوهريٌّ ، لا بُدَّ أن يَتحقَّق مِن الإجابةِ عَنه مِن داخلِهِ فِي صِدقٍ كَمِيل ، فإذا جاءتهُ الإجابةُ ، وَلَمْ تَكُنْ مُحقّقةً لَهُ صَلاحَ نفسِه وإعمارها وإصلاحَ ما حَولَهُ مِن الحيَاةِ كونًا وإنسَانًا ، فإيّاهُ أن يُقدِمَ عليه حتَّى يُصحِّح إجابته عَن هذا السُّؤالِ الجَوهريّ : (لم؟)

هذا المَقصدُ إذا ما تحقّق على الوجهِ الأمثلِ ، فإنّه سيترتَّبُ عليه البَراءةُ مِن جمهرةِ العيوبِ والآفاتِ الّتي استشرَت في زَمانِنَا في مجال البحثِ العلميِّ ، ولا سِيّما في مرحلة الدّراسات العليا علَى نَحوٍ لم يَكن كمثلِه في العُصُور الخَوالِي .

منْ تحقق بهذا المَقصِدِ الأمِّ الأعظمِ لا يُمكِنُ أن يُقصّر في إتقانِ صنعةِ بَحثِه أيًّا كان مجَالُه .

[1]) تبصّر كيف أنه - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ - أورد هذه الآية في سورة التكريم الأعظم لأعظم بني آدم ، بل أعظم خلقه قاطبةً سيّدنا محمّد صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وصَحبِه وسلّم.

ذلِكَ أَنَّ إتقان الصّنعة مِمّن هو عليْها مقتدرٌ شرطٌ من شُروط قَبولِ العَملِ ، وقد هدَى البيان النَّبويّ إلى أنّ الله - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ - يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ.

رَوَى الطبراني في " المعجم الأوسط" بسنده عن أم المؤمنين سيّدتنا عاشة - رضِي اللهُ عنها وعن والديها - أنّ رسولَ الله صلّى اللهُ عَليْهِ وعَلَى آلِه وصَحبِه وسلّم - قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ» (رقم: ٨٩٧) ([١])

وكذلك استحضارُ هذا المقصِد الأُمّ الأعظم ، يحمَى الحركةَ العِلميَّة في الأمّةِ ولاسيّما في الجامعات مِن داء" السّرق" و"الاستلاب " وقد تيسَّرتْ سُبُلُهُ ودقّ استكشافُه ممّا أغرَى نفوسًا مريضة بامتطاء ذلك المركب المهلك .

إنّهـما داءان فَحِيلان :

= داءُ التّسارع في الصّناعةِ ، والرَّغبة عَن الإتقان ، واستعجالِ الثّمرة .

= وداءُ السّرقِ والاسْتلابِ من أنكَى الأدواء الّتي تُفسِدُ البحث العلمي ولا سيما البحوث التي تصمع طلبا للحصول على درجة عامية او ترقية وظيفية.

لا يُفسِدُ الحياة العلميّة في أمّـة مثل هذين الدّاءين المُسْتشرِيَيْن فِي كثيرٍ مِن جامعاتِنا ومراكزِ البحوث العلميّة عندنا .

لوْ أنَّنا بالغْنا في غرسَ ذلك المَقصِدِ الْجُمْعةِ فِي أفئدةِ الباحِثين ،وراقبنا حضوره وفاعليته فيهم ، لكانت لنا بُحوثٌ علمية جادّة تؤتي أكلّها كلّ حينٍ بأذن الله تعالى .

• • • • •

---

[١]) أرغبُ إليك أن تقرأ الحديث في سياقه وروده(السياق المقاميّ) في كتاب" ا المعجم الكبير، تأليفابي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، (ت : ٣٦٠ هـ) المحقق: حمدي بن عبد المجيد السّلفي ،الناشر: دار إحياء التراث العربي ،الطبعة الثانية، سنة : ١٩٨٣ م .ج: ٢٤ص: ٣٠٦، ٣٠٦ ، رقم(٧٧٦)
ففي هذا السياق معانٍ جليلة نحن مفتقرون إليها، فلا تبخلنّ على نفسِك ،فَإِنّها في عوزٍ إلى ذلك.

ما مضى قولٌ في المقصد الكليّ الأعظم ، ويتولّد منه مقاصد عدّة لا أطيقُ تفصِيلها ، ممّا يحملني إلى أن أذكر أربعةً هي أعمُّها وهي بمثابة أركانِ البناءِ بيْنا الّذي سبق بمثابة عمود البناء فيما أذهبُ إليْها :

الأوّل : صِناعةُ عُقُولٍ عِلْمِيّة وتمكينها من قيادة وضبط حركة الحياة :

لا يقيمُ الأمةَ مقامِ العزّة والرّيادة كمثل أنْ تكونَ عقول أبنائها تَعشقُ مُمارسَةِ الحياةِ فِي كلّ جوانبِها بِموضُوعيّةٍ وعصمةٍ من أعاصيرِ الوهم والشائعاتِ ، والخرافات . ومن ثَمَّ لا يكونُ لغيرِ الحقِّ تأثيرًا عليْها ، ممَّا يعصِمُ حركةَ الحياة من الاضطرابِ والانحراف .

ولن تجد أمةٍ تتردّى في دركات الذلّ والتخلف إلا إذا كانت جمهرة أبنائها تبيع عقولها لكلَّ ناعقٍ وناغق ، تنفق عمرها أمام برامج التسلية أضعاف أضعاف ما تنفقه في مجالسِ العلمِ ومخادنةِ أسفارِ العلماء .

المنقذ من التردّي والتخلف عقولٌ دستورها قولُ الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦) عقولٌ تَعشقُ مُمارسَةِ الحياةِ فِي كلّ جوانبِها علَى أُسُسٍ عِلميّة مَكينَةٍ ، وَرُؤيةٍ مُستقبليَّة تَعادِلُ الرُّؤيَة الآنيّة ، فَلا تَعملُ لِيومِها، بَلْ تعملُ لما يبقَى نفعُه إلى آخرِ يومٍ فِي هذِه الحياةِ .

صناعَةُ عقولٍ لا ترَى أنّها مَسؤُولةٌ عمَّا هِي فِيهِ ، فحسبُ، بَل مَسؤولةٌ أيضًا عمّا بيْن يديْها فِي الأجيالِ السَّابقةِ .

هِي عقولٌ عِلميةٌ تَصنعُ مِن حاضِرها لِمستقبَلِها.

وحيثما وجد عقلٌ علميّ يقودُ حركةَ الحياةِ ويضبطها، فالحياة عمود أمرها العدل والحرية المسؤولية ، وسياجها السلام الاجتماعي بين أهلِها على اختلاف عقائدهم ومستوياتهم العلمية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية...

وحيثما وجد عقلٌ علميّ يقودُ حركةَ الحياةِ ويضبطها، كان الإيمانُ بالله تعالى حاضرًا في جميعِ شؤونها ، فلن يكون هنالك عقلٌ علمي معافى من سلطان الشبهات والشهوات والهوى والعصبية إلّا كان الإيمان بالله تعالى ومراقبتِه قائمًا فيه .

وإن وجدت عقلًا يدعى أنّه علميّ قدّم للإنسانية كثيرًا من الاكتشافات والاختراعات التي يسرت على الناس صعابِ الحياةِ ، وهو ملحدٌ ، فإنه يقينًا في إلحاده هذا لم يكن معافَى من سلطان هواه وشبهاته وشهواته وعصبيته ، ومن كان كذلك لا يكون عقلًا علميًّا لأنها عوائق كبرى عن تحقيق التفكيرِ العلمي السديد.

إن صناعة العقلِ العلمي ،وتمكينه من قيادة الحياةِ وضبطها لا يكونُ إلّا بالتَّميّز فِي صِناعة "البحثِ العلمي" المُنضبطِ بأصولِ الممارسةِ العِلمية وبمحاسِنِ الأخلاقِ الإنسانيّة عامة ، والإسلاميّةِ خاصّة .

إذا ما تحقق للمرء عقل علمي فإنه يأبى إلاأن يكون عبدًا لله وحده،وينبذ كل صور الاستعبادج البشريّ في أي مجال من مجالات الحياة، وهنا يرتفع من الحياة الركون إلى الرضا بالمذلة على مستوى الفرد والمجتمع والوطن والأمّة

بداية الصراط المستقيمِ إلى التحرير من الاستعباد بكل صوره هو ان تستحيل عقول ابناء الأمة عقولًا علمية محصنة من أن تعبث فيها ما يُسمى بالاذرع الإعلاميّة التي يمتطيها الطغاة إلى مآربِهم الإبليسيّة .

ولا سبيل إلى تحقيق العقل العلمي إلا من خلال البحث العلمي ولا سيما في الجامعات ومراكز البحثِ العلميّ .

• • • • • •

<u>الثّـاني : تَحقيقُ حَصَانةِ الأمَّةِ مِن العَوزِ إلَى غيرِها</u> ، في أيّ مجالٍ مِن مجالاتِ الحياةِ ؛ لتكونَ بذلِك عزيزةً لا يُملَى عليْها من خارجِها ، ولا تَفتَقِرُ إلى

أن تَتغافَلَ عمّا يَقعُ على أحدٍ فِي أيٍّ مكانٍ مِن الظُّلمِ علَى المُستوَى الفَردِيّ أوْ الجَمْعِيّ.

إنّ الحَاجةَ إلَى الآخرِ هُو ثغرةٌ مُتراحِبةٌ فِي جدارِ الأمنِ القَومِيّ لأيّ دولةٍ ، وَلَن يَحمِيَ هذه الثَّغرةَ إلّا البَحثُ العِلمي الجادّ فيمَا تفتقر فيه الأمّةُ إلى غيرِها في مجال الدِّراساتِ الإنسانِيَّةِ علَى اتساعِها وتنوِّع علُومِها وفِي مجالِ الدِّراساتِ العِلميَّة التّطبيقِيّة سواءً بسواءٍ، بلْ إنّ خطرَ الافتقارِ إلى الآخرِ المُتربّص فِي مجالِ الدّراساتِ الإنسانيةِ لا يقلّ عَن خطرِ الافتقارِ إليْه في مجَالِ الدِّراساتِ العِلميّة العَمليّة التّجريبيّة مِن طِبٍّ وهندسةٍ وعلومٍ وزراعَةٍ ونحو ذلك.

وهذا يُوجبُ أن يكونَ " البحثُ العلميُّ" مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بحاجة الأمّةِ في تحقيقِ أمنِها القوميّ ، والمجتمعيّ ، والأخلاقيّ، والثَّقافِيّ ... ممَّا يوجبُ على القائمين علَى برامج البَحثِ العلميّ في الجامعات ومراكز البحثِ العلميّ ألّا يُؤذن بِصناعةِ بَحثٍ فِي ما لا يَرتبِط بجانبٍ مِن جوانبِ حاجاتِ الأمة التي يؤثر الافتقار إلى الآخر لتحقيقها افتقارًا يمتد أثره إلى عزَّة الأمة وسلامتها مواطنًا ووطنًا.

إن النفوذ إلى أمن الوطن والأمة من بابِ الدراساتِ الإنسانية لهو الأشد خطرًا، ومسؤولية التصدي له إنّما هي فريضةُ البحثِ العلميّ، فالغزو الثقافيّ هو القوةُ النّاعمة التـي تيسر على القوة العسكريةِ تحقيقَ أهدافِها ، فلا يُمكن لأمةٍ ذات ثقافة حصينة معصومة من الاختراقِ أن تستعمر عسكريًّا من أي قوةٍ أخرى .

النَّاظرُ في واقعِ الأمَّةِ الإسلاميّة عامّة،والعربيّةِ خاصَّةً ليرَى أنّها باتَت لا تملِكُ مِنْ أمْرِها شيئًا : أسْلمَتْ أمرَها لِمَن هُمْ بِها يَتربّصُون ، والعِلّةُ الرّئيسة فِي

هذا -عندِي - إنّما هُي عوزُها إلَى ما فِي أَيدِي تِلك الأمّمِ المُتربّصَةِ مِن ضرورات الحياةِ وحاجاتها

وما ذلِك العَوز إلّا لِتهافُتِ "البَحثِ العِلمِيِّ" فِي الإمّةِ الإسْلامِيّةِ جَمعاء ، فَعلَى كثرةِ ما فيها مِن الجامعاتِ ومراكز البحث العلمي إلّا أنّ ما يُجرَى فيها مِمَّا يُسمّى بحثًا علميًّا تسامحًا ، ولا سيّما فِي مجالِ الدِّراساتِ الإنسانيّة عامّة، والدِّارساتِ الإسلاميّة خاصّة إمّا أنّه مَكرورٌ ، وإمّا أنّه غيرُ مُلتفِتٍ إلَى حاجاتِ الأمّةِ الإسلاميّة والإنسانيّة ، وقليلٌ ممّا يَتسِمُ بملاحظة حاجةِ الأمّة الإسلاميّة، لا يَجِدُ رِعايةً لاستثمارِه.

وكثيرٌ ممّا يقامُ من مؤتمراتٍ علميةٍ دوليةٍ ومحليّة في جامعاتِنا وَتتخِذُ توصياتٍ لا تجدُ لها حُضُورًا عَمليًّا فِي الحياةِ عامّة ، بلْ ولا فِي الجامعةِ نفسِها . وكأنَّهم يَرون أنَّ الأمرَ يُغنِي فيه أن يُنشرَ ذلِك فِي كتابِ المُؤتمَرالَّذي لا يَطّلع عَليْه إلّا المُشارِكُون فِي المُؤتمرِ .

•••••

<u>الثَّالِث : الدّفعُ عَن الأمّةِ ما يُشَنّ علَى عقيدتِها وشريعتِها وتُراثِها العِلميّ والثّقافيّ مِن شُبهاتٍ مُتهالِكةٍ مِن داخِلِها وخارجِها .</u>

مِنْ قَدرِ هذِه الأمّةِ المُسْلِمةِ أن تَبقَى فِي رِباطٍ دائمٍ دِفًاعًا عَن عَقيدتِها وشريعَتِها وتُراثِها العِلميّ والثّقافِيّ والأخلاقِيّ ، كَمِثْلِ ما تَدْفَعُ عَن أرْضِها وثرواتِها

ولَعلّ خُصُومَها المُتربّصِينَ بِها باتَ يقينًا مُقِيمًا فِيها أنَّ هذِه الأمَّة لَن تُهزَمَ بالسَّيّفِ إلّا مِنْ بَعدِ أن تُهزَمَ بالقلمِ .

القلمُ هُوَ الَّذِي يَثقُبُ فِي حِصْنِها ثقبًا يَتراحَبُ يَومًا بَعدَ يومٍ ، فلا يُطاقُ سَدُّهُ إذا لَم يَسْتيقِظْ أبناؤها قادةً وشُعوبًا إلَى خُطورةِ فِعلِ ذلِك القلمِ

القَلَمُ بِكُلّ صُورِهِ مَقروءًا ومَسمُوعًا وَمشْهُودًا هُو الَّذِي يُمُهِّدُ الطَّرِيقَ إِلَى السَّيفِ ، وَمِن هُنا تُدرِك خُطورةَ الأذرعِ الإعلامِيّةِ لِخصُومِ الأمّةِ ، وأَخدانِهِم وَحفَدتِهِمِ فِي دِيارِ الأمّةِ الإسلامِيّةِ والعَربِيّةِ جمعاءَ.

وَمْن هُنا تَفقهُ الباعثَ علَى تكاثُرِ الفَضائِياتِ الخاصّةِ وما يُبذلُ فِي بَثِّها مِن أموالٍ لا تُحصَى لَو أُنفِقتْ علَى بَرامج البحثِ العِلمِيِّ فِي دِيارِ الإسلامِ والعُروبةِ لَكان لِهذِه الأمَّةِ شأنٌ عظيمٌ.

لَيْس كَمثْلِ البَحثِ العِلْمِيّ الجادّ ولاسيّما فِي مَجالِ الدِّراسَاتِ الإنْسانِيّة علَى تعدُّدِها وَتَنوّعِها ما يُمْكُنُ أن يُقوّضَ الجُهُودَ المَبذولَةَ لِبثّ الشّبُهاتِ شغلًا لأبناءِ الأمّة ودفعًا بِهِم إِلَى مَحرقةِ "الإلْحادِ" .

وهو داءٌ أشدّ فتكًا في عصمة الأمةِ ومنعتها مِن كلّ أسْلحةِ الدمارِ الشاملِ والأسلحة المحرّمةِ دوليًا .

فَريضةٌ محكمةٌ عَلَى "البحث العلميّ" فِي هذِه الإمّةِ أنْ يقُومَ عَلَى هَذِه الثَّغرةِ لِتَبْقَى هذِهِ الأُمّةُ كَما يُرِيدُ مِنْها خَالُقها - سُبْحانَهُ وَتَعالَى - أن تكونَ خيرَ أمّةٍ تُخرجُ النّاسَ مِن الظُّلماتِ إلَى النّور . وهي لنْ تُخرِجَهم إِلَى النُّورِ إلّا إذا كانَتْ هِي قائمةً فِيهِ ، بلْ إلَّا كانَت هي" النُّورَ".

• • • • •

<u>الرابع : تحقيقُ ريادةِ الأمّةِ العَربيّةِ والإسلامِيّة</u> للأمَّةِ الإنسانِيّةِ بِما تمدُّها بِهِ مِن عَوامِلِ تَحقيقِ الحياةِ الكَريمةِ لَها .

إنَّ القدرةَ علَى بذلِ المَعُوناتِ الإنسانيّةِ لِلأمَمَ الأُخرَى، ورعايةِ حُقوقِ كَرامةِ الإنسانِ فيها وحمايتِها لَمِن أقوَى عَوامِلِ النَّجاحِ في تَحقيقِ الرِّيادةِ الإيجابِيّةِ ، ممَّا يُمَكِنُ الأمّةَ الإسلامِيّةَ مِنْ أنْ تسمعَ كلمةَ الحَقّ والخَير لِلآخرينَ ؛ لِيَتفَكَّرُوا فِيها فِي حُريَّةٍ تامّةٍ فَيَتخذَ كُلٌّ قَرارَهُ بِنفسِهِ لِنَفسِهِ فَإمّا أنْ يَقْبلَ ، ويُقبِلَ وينصُر

وإمّا أن يُعرِضَ ، ويُسالمَ ، وبذلِك يَتيَسّرُ لِلأمّةِ الإسلامِيَّةِ أن تقُومَ بِواجِبِها إزاءَ الأُمَمِ الأُخرَى إعذارًا إلَى اللهِ تَعالَى .

ما لمْ تكن الأمّةُ الإسلامِيّة عامّة والعربيّة خاصّة مِن خلالِ البحثِ العِلميّ الجَادِّ فِي جَميعِ مَجالاتِ الحياةِ قادرةً علَى أنْ تمُدَّ يدَها بالرّعايةِ والحِمايةِ ، فإنّها لنْ تستطيعَ يومًا أنْ تكونَ الأمَّة الإمامِ الشَّاهدة لِواقِع الإنِسانية والشّهيدةَ عليها. والقوامة على إصلاحِه وإسعادِه .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾(الحجّ)

• • • • •

زبـــدة القولِ

الأمّةُ الّتي لا تنفقُ مِن مواردِها علَى البحثِ العلميّ الجادِ مقدارَ من تفقُه علَى ما لا يُضِيرُ تركُه أوْ الاقتصادِ فيه لهي أمَّةٌ ترضَى بأن تُقِيم وتَرتعَ فِي مَعرّة العَوز، وذلتِه وأن تكونَ لا في مصافّ ما يُسمّى بالأمَمِ النَّاميةِ، بل فِي مَصافٍّ الأمَم المتهاويةِ.

إنَّ كلَّ ذي ولايةٍ وإنْ كانت على اثنين أو واحدٍ ثم لا يجهدُ في النّصح لَهُم لَهو المطرود عن جنةِ العزة في الدنيا، وجنةِ السّعادةِ في الآخرة

إنَّ ما تعانيه الأمّة مِن هوانٍ واستخفافٍ بها حكامًا ومحكومين جعلَ ثلّةً مِن أبنائِها يَسْتحيي مِن الانتسابِ إليْها ، فيهرعُ إلَى خصُومها ينتسبُ إليهم

ومن أسبابِ ذلك الاستخفافِ والاسْتهانةِ ما يُعانيه " البحثُ العلميّ" في كلِّ مجالٍ مِن مجالاتِ الحياةِ فيها مِن إهمالٍ على مُستوَى صِناعته ، ومُستوَى رِعايتِه .

الخطوةُ الرَّئيسةُ المُقدَّمَّةُ لِلخُروجِ مِن هذِهِ المُعضِلةِ تصحيحُ الموقفِ العامّ والخاصّ مِن " البحثِ العلميّ" موضُوعًا وممارسةً واستثمارًا في جميع مجالاتِ الحياةِ ، وارتباطِها بحاجاتِ الأمّةِ وحركةِ الحياةِ.

ولا تحسبنّ أَنَّ هذا أمرٌ يَختصُّ بالبحوثِ العِلميّةِ العمليّة التَّجريبية .

كلّا لا تقلّ البحوثُ في مجالِ العلومِ الإنسانيّة ولاسيّما علوم الإسلام والدّعوةِ والثَّقافةِ والتّربية عنها في هذا .

وَمنْ يرصُد واقعَ البَحثِ العلميّ في ما يُسمّى بالأمِمِ المتقدّمةِ يوقنُ أنَّهم ذو اعتناءٍ بالبحوثِ العلميّة فِي الدّراساتِ الإنسانيّة كمثل اعتنائِهم بها فِي الدّراساتِ العِلميّةِ العَملية ، ويُوقِن أنّهم يُنفِقون علَى دراسةِ واقعِ الإمّةِ الإسلاميّة عامّة، والعَربيّةِ خاصّةً والوقوفِ على العَواملِ الّتِي تُحقق لها استغناءها عنْهم،

والعوامل الّتي تستبقيها في قبضتها ، لا تملِكُ إرادتها في جانبٍ من جوانب حياتها.

تلك كلماتُ عجلَى في أهم مقاصِد البحثِ العلميّ حرصت على أن تكونَ مقاصد كلية وأن تكونَ مرتبطة بشأنِ الأمّةِ ، فكلّ ما كان أثرُه ونفعُه أعمَّ وأبقَى كان أمجدَ وأحمدَ .

والله الهادي إلى سواء السبيل

وكتبه

محمود توفيق محمّد سعد

القاهرة :مدينة الشروق

حرر في الاثنين: السابع والعشرين من شهر رجب عام ١٤٤٣هج

والعشرين من شعر فبراير سنة ٢٢٠٢م